

في الرحلة إلى النجف الأشرف

كنت خلال إقامتي ببغداد أتردد على دار معالي رضا الشبلي ، فالتقي هناك أحياناً بسيد من سادات النجف هو السيد صالح شمسة وهو من أهل بيت من أقدم البيوتات وأعرقتها في النجف ، وبه ينزل سمو الوصي المعظم عند زيارته لذلك المقر الشريف . فكان يصف لي ما يمتاز به النجفيون من القدرة على ارتجال الشعر والكلف بالأدب والرواية ، وحرصهم على تخريج أولادهم بالاطلاع والقراءة ، وإغرائهم بالمطارحة وتحصيل العلوم العربية . ثم أخبرني بمثل ذلك صديقي السيد حسين بستانة وأكد لي أنه لا بد من زيارة النجف وكرلاء والتفرج بمطالعة ما في تلك المشاهد المقدسة من الآثار والنفائس والتمتع بقضاء الواجب من زيارة علي والحسين عليهما السلام . وبعد ظهر يوم من أيام الخميس جاءني ذلك الصديق وقال اليوم نفاجي أهل النجف بالزيارة . ولا يسعني أن أنسى ما ناطه ذلك الصديق الوفي بعني من الفضل ؛ فقد فرض حولى نطقاً من عنايته لم يدعني أفلت من مكرمة يسديها دائماً إلى بطيب نفس ووفاء لم أر مثله إلا له . وهو أحد طائفة من مثقفي البغداديين الذي تخرجوا في دار العلوم العالية ، وما يزالون يحتفظون بهذه الذكريات الغالية لتلك الأيام التي أقاموها بمصر . ومما يستحق الذكر أنهم جميعاً ينهضون اليوم بأعباء جسام في المصالح المختلفة بالحكومة العراقية .

خرجت مع ذلك الصديق في طريقنا إلى النجف ، فمررنا بعد قليل ببعض روافد الفرات وهو يتدفق بالماء وعلى جانبيه زروع وبساتين ونخيل وبقاع أخرى جرداء بلاقع ، فذكرني ذلك بما يرى في مصر أيام فيضان النيل وما يذهب من مائه في البحر ، وفي واديه صحارى قاحلة لا يعد ما يزرع بجانبها شيئاً يذكر . وذلك بالضرورة دليل على عجز العراق ومصر إلى الآن عن اتخاذ سياسة مائية يحتفظان معها على الأقل بنصيب مما يذهب من هذا

الغدق السائح هباء . ثم انتهينا بعد قليل إلى مدينة الحلة ، وهي من المدن القديمة في حواضر العراق ، وإن كانت لا تزيد في عمرانها عن بعض مراكز القطر المصري ، فنزلنا بدار السيد خير الهنداوى ، وهو من رجال الحلة وهو شاعر أديب من الشعراء الذين لا يفشون أشعارهم ، فقضينا في ضيافته ليلة خصنا منه ومن بنيه الغرائيق الثلاثة مالا قبل لنا بشكرهم عليه من التكررة والحفاوة . وفي صباح اليوم التالى تفرجنا بأطلال بابل ورأينا بقايا القصر الملكى القديم لبخت نصر ، ثم عدنا فتغدينا على مائدة السيد الهنداوى مع جماعة من كرام الحليين . وبعد انقضاء فترة من الحديث والمؤانسة خرجنا إلى النجف فبلغناها بعد نحو ساعتين تقريباً ، ونزلنا بدار السيد غياث بحر العلوم ، وهو شاب مهذب من رجال الحمامة يتمتع بجانب وافر من الدمثة ورقة الحاشية . ثم دعينا لزيارة جماعة الرابطة الأدبية ، وهي تشبه عندنا هذه الجماعة الناشئة التى تسمى بجماعة أدباء العروبة . غير أن الرابطة النجفية تمتاز بالجد في العمل على تنمية المواهب المطبوعة التى لا يبعد أن تكون أثراً من آثار الوراثة المنحدرة من أصلاب بعيدة العهد لأولئك الأوائل من الشعراء المتقدمين ؛ فهم ينظمون الشعر على مناهج القدماء وينشبهون بهم في إحياء الديباجة العربية والعبارات المختارة . وإذا كان شاعر العراق اليوم ، وهو السيد مهدي الجواهري كما علمت ، نجنى الأصل ، فقد حق لأهل هذه المدينة أن يتناولوا على الناس فانه على ما أعتقد يستحق أن يدعى أشعر شعراء العربية في هذا الوقت غير مدافع . وقد استمعنا في هذه الرابطة إلى عدة من الخطب والأشعار تدور كلها حول الإعجاب بمصر والمباهاة بما بلغته من التقدم والمدنية ، وتتضمن مع ذلك شيئاً كثيراً من الحفاوة بنا ووصفنا بما لا نبغاه من التقدير والتكرمة تفضلاً منهم وحسن ضيافة . وسنذكر من هذه القصائد والخطب ها هنا قصيدة واحدة مراعاة للاختصار ، وهى للشاعر الكبير السيد الجبوى . قال حفظه الله في مطلعها :

فى النيل والنيل زاكى الثمر أذقنا الجنى أدباً مبتكر
وأنشد هنا شعرك العبرى وخد بمعانيه تلك الزمر
ورؤقه خيراً كما يرتجى وأرسله نشرأ كما ينتظر

وما شئت فاسحر به السامعين
فقى النيل طف ساعة بالفرا
تأمل ملياً وسل ما ترى
تلى ردت الفتح والفاحين
وكيف استباحث عرين الأسود
فما كل من قال شعراً سحر
ت تجد في مطافك أسمى العبر
لتلك المعالي هنا من أثر
أكف اللهاى وأهدى الغير
ذئاب ولله حكم القدر

ثم يقول :

فقى النيل أحب بها ليلة
تحدث وعطر فضاء الندى
وخبر أنبلغ ما نشتهى
أتصدق في مصر أحلامنا
يلذ وإياك فيها السر
بأطيب مما تذيع الزهر
فقد ينعش السامعين الخبر
بضم العروبة في مؤتمر

وهي قصيدة طويلة مفرغة في مثل هذه السلاسة والركة . وبعد انتهاء هذه الحفلة الأدبية عدنا إلى دار مضيفنا ، وهناك أقبل مشايخ النجف ولفيف من أدباء الرابطة وغيرهم ، فقضينا جانباً من الليل في سمر ومجادبة طيبة . وفي الصباح زرنا دار منتدى النشر ، وهي جماعة أدبية أخرى تعنى مع نزعتها الأدبية بالبحوث العلمية المختلفة وتعمل لدراسة الكتب القديمة ، ويتخرج في أزقتها الطلاب بتحصيل معظم العلوم الإسلامية . وهذه الجماعات الأدبية على تعدد أسماؤها تتعاون جميعاً على حماية اللغة الفصيحة والأدب المذهب من أن تنال منها عجمة المتشاعرين والمتعاطين للأدب من غير أهلها ممن لا يخلو منهم قطر من الأقطار العربية . ويتفاعل المخلصون لهذه الجماعات الأدبية أن تكون نواة صالحة لبناء جامعة كبرى في النجف الأشرف تقوم بتنظيم الدراسات الأدبية وتزويد مدارس الفلسفة الإسلامية ومذاهب الفقهاء بالمباحث الصحيحة من خلاصة العرفان المأثور للأئمة المجتهدين من أهل هذه المدينة وغيرهم من علماء العراق .

ولأدباء النجف طابع تغلب فيه النزعة الدينية ، ولم يصحف ومجلات يعد في طليعتها مجلتا « الاعتدال » و « البيان » لصاحبيهما الأستاذ البلاغى و الخاقانى وكلاهما من الكتاب البارزين ، وهما يخدمان النهضة الأدبية والعلمية ويضحيان في سبيلها بالقلم والمال .

ولقد كان يرافقنا في كل انتقالاتنا السيد هاشم رزين حاكم النجف ، وهو رجل كريم الخلق جهير ضاحك الثغر صحبنا في الصباح الثاني إلى روضة الامام أبي الحسن على بن أبي طالب . وبعد أن طفنا بهذه الحضرة العلوية وقضينا نسكنا منها عدنا إلى خزائن النفائس والمجوهرات الخاصة بهذه السدة الشريفة ؛ فرأينا ما يبهّر الأبصار ، يثير العقول من الستائر المنسوجة باللؤلؤ والجوهر وغيرها من نفائس الأحجار ، وهن أربع ستائر لا أظن أن أحداً ولا هيئة من الناس تستطيع تقويمها بالمال الآن ، ثم رأينا غيرها من الستائر المنسوجة بالماس على شكل الكمثرى والقنبيل الضخم المصنوع من صفائح الذهب المحلاة بالوان من الأحجار الكريمة . وبعد أن قضينا من ذلك وطراً عدنا فطفنا حول هذه الأضرحة المتزينة بالقباب الموشاة بالذهب . ثم قضينا سائر اليوم في تزاور وسطالعة ، وخرجنا مودعين من أهل النجف إلى كربلاء ، بعد أن تغدينا ومعنا جماعة الرابطة والأساتذة المصريون وغيرهم في دار السيد صالح شمسة ولقينا من حفاوته ما أعجزنا عن الكلام . فبتنا ليلتنا بدار السيد حسين سادن مقام العباس بن علي رضي الله عنهما ، ثم تناولنا طعام الغداء على مائدة سعادة المتصرف السيد طاهر القيس الذي حشد للقائنا وأفاض في الحفاوة بنا بما لا يحيط به الوصف ، واستمعنا عنده إلى أناشيد الشاعر يعقوب وهو يترنم بشعره وأشعار غيره بأنغام وإيقاع مطرب شجى كما كان يفعل حافظ إبراهيم رحمه الله . ثم عرجنا في طريقنا على مدينة الكوفة ، فتشرفنا بزيارة جماعة من أئمة الشيعة ومجتهديهم ، نذكر منهم السيد الزنجاني والإمام كاشف الغطاء والجزائري وغيرهم . ثم عدنا بعد ذلك إلى بغداد . وقد تركت هذه الرحلة في نفسي من الأثر ما حفزني إلى أن أنوه بها على صفحات « الكاتيب المصري » الذي رأيت له بالعراق عشاقاً كثيرين من كرام القراء . ويحمل بي أن أختم هذه الكلمة بذكر قصيدتي التي ألقيتها في دار الرابطة الأدبية بالنجف إتماماً للفائدة . وهذه هي القصيدة :

أمن بغداد أزمعت الركابا	وخليت المنازل والصحابا
وأنت بغيدها كلف تمنى	لو أنك قد لبست بها الشبا
وأنت كنت لا تقنى حياء	ولا تخشى على فند عتابا
لأبكار زهاها الحسن حتى	خلعن له من الدل النقابا

يرحن موائسا ويفحن عطرأ
يساقطن الحديث كأن سلكأ
وإنك إذ رجبها لوعد
وإن ليست عبايتها وأرخت
تريك إذا اثنت للين كفا
وجيدأ حاليها ورضاب ثغر
وصدرا فيه رمان صغار
تسائلني وأنت بها عليم
أجيدك هل بعثت لها رسولا
وهل أخفيت شجوك عن ميم
وهل أرسلت من زفرات قلب
وأقصر عنه باطله . . . وماذا
وليس له على الستين عذر
فعدت عن الصبا والغيث واطلب
ففي النجف الأغر أروم صدق
عشقت لهم ولم أرهم خلا
متى ما تأت منتجعا حمام
لقت لديهم أهلى وساعت
وهل أنا إن أكن أئمتي لضر
عجبت سادح لهم بشعر
وإن ينظم وليدهم ويضا
غرائب منهم يطلعن مجدا
أولئك هم حضرة الضاد تعزى
وأصلها على الضراء عودا
وأوفاهها إذا حلفت بعهد
وكيف وفيهم مثوى على
وقدما كان للبطحاء شيخا
نجي رسالة . . . وخدين وجي

وما ضمخن من عطر ثيابا
تثرن به لآئنه الرطابا
لكاظمآن إذ يرجو السرابا
مازرها وآثرت الحجابا
تزين من أناملها الخضابا
تذم لطعمه الشهد المذابا
يطن بمهجة الصب العذابا
كأنك لست معمودأ مصابا
فصدق عن دخيلتها الجوابا
تهافت حينما شهدت وغابا
تعلقها على مقعة . . . وثابا
يرجى المرء إن فوداه شابا
إذا قالوا : تغازل أو تصابي
إلى الأشياخ في النجف الرغابا
تربعت الأباطح . . . والهضابا
حلا صفو الزمان بها وطابا
تر الأحساب والكرم اللبابا
إلى قلبي مودتهم شرابا
لغير مجارهم أرضى انتسابا
ولا يخشى لقائلهم معابا
أراك السحر والعجب العجابا
ويزحم الكواكب والسحابا
عروقهم الأكرمها نصابا
وأثقبها إذا قدحت شهابا
وأطولها إذا انتسبت رقابا
بنوا من فوق مرقد قبابا
وكان لقبه الاسلام بابا
إذا صلت حلومهم أصابا

وإن شهد القبائل نار حرب
أخاض غمارها جرداً عتاقاً
فما كأى الحسين شهاب حرب
وليس كمثلته إن شئت هدياً
ولا كنيه للدين حلياً
متى تحلل بساحتهم تجدها
وإن شجعت بوارقهم لغيت
هو خير الأئمة من قریش
حباهم ربهم حلماً وعلماً
وحبهم إلى الثقلين طراً
فمن يك سائلاً عنهم فلا
فلن تلقى لهم أبداً ضريباً
مصاييح على الأفواه تتلى
وما دعى الله بهم لأمر

مجلجة فوارسها غضاباً
وأشعل نارها أسلاً وغاباً
إذا الأستار أبرزت الكعاباً
ولا إن شئت في الأخرى ثواباً
ومرحمة إذا الحدثان ناباً
فسحات جوانبها رحاباً
تحذر من سحائبه وصاباً
وأزكاهم وأطهرهم إهاباً
ونزل في مديحهم الكتاباً
وزادهم اسدته اقتراباً
أنبئه إذا احتكم الصواباً
إذا الداعي لكرمة أهباباً
مدائحهم مرتلة عذاباً
تعذر نيله . . . إلا استجاباً

محمد هاشم عطي